الجاحظ وكتابه الحيوان

د. أحمد أحمد منصور نفادى
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بأسيوط

ان الحاجة ملحة ، والدافع شديد — فى عصرنا هذا الذى صرفت فيه متطلبات الحياة ومغرياتها فى آن معا شبابنا العربى عن القراءة الجادة المثمرة وشغلته بغيرها — الى أن يقدم له المشتغلون بالأدب ودراسته ، بين الفينة والفينة ، والحين والآخر ضروبا شهية ، وألوانا دسمة،من ثمار القرائح الأدبية التى حفلت بها الأمهات من كتب التراث، فى تطواف سريع ، تجتنى فيه الزبدة ، وتحتلب خلاله الأفاويق وتعرض الصور والنماذج ، عرضا أخاذا يلفت الذهن ، ويأخذ بمجامع القلوب ويوجه العقول الغافلة ، والبصائر الراكدة ، والأفكار الملولة الى تلك الساحات المشرقة النسيحة ، المعطرة بأنداء الثقافة الهادفة الرشيدة ، التى توسع المدارك ، وتجلو صدأ الأذهان ،وتتسامى بالمواهب والأفكار الى آفاق البراعة فى الافتنان ، والمقدرة على الابداع وقوة التأثير .

نعم . ان الحبل — اليوم — منبت بين الشباب والمكتبة ، والجفوة شديدة بينه وبين المعرفة ، والهوة سحيقة بين تفكيره القاصر،والوقوف على عيون الأدب وروائعه ، وما تزخر به المكتبة العربية من كنوز ثمينة ولآلىء نادرة زين بها أسلافنا الأماجد من الكتاب والشعراء جبين الزمان ، وأضاءوا غرته وأعلوا هامته .

وأديبنا الجاحظ ــ رحمه الله ــ من هؤلاء الأعلام المثلة الذين حلوا لغة القرآن الكريم بأكرم ما تحلى به المفارق والأجياد ، وزينوها بأغلى ما تتباهى به الخيرات الحسان • وكتابه « الحيوان » فى سمط الفرائد النفيسة والجواهر الكريمة واسطة العقد ، ودرته العجيبة الباهرة •

فمن الجاحظ ؟

انه أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى(١) ، ينتهى نسبه الى ليث بن بكر بن عبد مناة من كنانة بن خزيمة • وسمى بالجاحظ لجحوظ فى عينيه •

ولم يعرف تاريخ مولده على وجه التحقيق ، ولكن الحموى يذكر فى معجم الأدباء أن مولده كان سنة ١٥٠هـ لما روى عنه من قوله « أنا أسن من أبى نواس ، ولدت فى سنة مائة وولد فى آخرها •

وقد ذهب الأستاذ شفيق جبرى فى كتابه « الجاحظ معلم العقل والأدب(٢) » الى أن الجاحظ ولد سنة ١٥٩هـ حيث يقول «ولكننا اذا علمنا أن الجاحظ مات سنة ٢٥٥هـ وأنه شكا فى أواخر أيامه من كبر السن فقال : وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها سهل علينا أن نقول : ان الجاحظ ولد سنة تسع وخمسين ومائة بوجه التقريب • وقد وافقه على ذلك الدكتور أحمد كمال زكى فى كتابه عن الجاحظ(٣) حيث يقول « ذلكم هو عمرو بن بحر الذى ولد حول العام التاسع والخمسين بعد المائة » •

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ تحقيق احسان عباس ط. دار صادر بيروت ص ٤٧٠ •

(٢) ص ٣٥ •

(٣) سلسلة أعلام العرب •

فالجاحظ قد سلخ من عمر الزمن ستا وتسعين سنة أى أنه ولد فى خلافة المهدى ومات فى خلافة المهتدى ان لم يكن فى أواخر أيام خلافة المعتز بحسب اختلاف المؤرخين فى ذلك(٤) وقد اعتمد ياقوت الحموى فى ذكر كنية الجاحظ على ما روى عنه انه قال « نسيت كنيتى ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم « بم أكنى » فقالوا بأبى عثمان »(٥) .

وكذلك ما روى فى سر تلقيبه بالجاحظ الى ما كان يتصف به من جحوظ فى عينيه جعل كلمة « الحدقى » من ألقابه وأنه قال « ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآنى استبشع منظرى فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى »(٦) .

نشـــأته :

ولقد نشأ الجاحظ نشأة فقيرة متواضعة تعتمد على الكفاح الدؤوب فى سبيل تحصيل ما يمسك الأود ويحفظ الحياة من بلغ العيش ، فقد مات أبوه بحر بن محبوب وابنه عمرو فى فجر الطفولة فاضطرت أمه الى التصدى لمواجهة أعباء الحياة حتى تتمكن من تربية ابنها الصغير الذى يبدو أنه كان وحيدها حيث لم يوجد فى المصادر القديمة أو المراجع الحديثة التى اهتمت بالتأريخ له ما يدل على وجود اخوة له أشقاء أو من جهة أبيه ، ولا نستطيع أيضا أن نحدد نوع المهنة التى كانت تمتهنها تلك المرأة الفقيرة الأرملة آنذاك مادام أحد

---

(٤) ذكر الدكتور أحمد كمال زكى أن سبب وفاة الجاحظ نقل الى الخليفة المعتز ببغداد مع أن الثابت تاريخيا أن عاصمة الخلافة كانت « سر من رأى » منذ سنة ٢١٩ أيام المعتصم الى أن عادت بغداد عاصمتها فى عهد المعتمد بن المتوكل الذى تولى الخلافة سنة ٢٥٦هـ .

(٥،٦) الجاحظ معلم العقل والأدب ص ٣٦ .

لم يشر الى ذلك ، ولكن الذى يهيأ الى انهـا ان لم تكن قـد امتهنت الخدمة فى بيوت الموسرين بالبصرة موطنها ومحـل اقامتها لقاء أجـر بسيط وبعض منح الطعام والكساء بين الآونـة والأخرى ، أو القيـام بغزل خيوط الصوف وبيعها فى أسواق البصرة فانها كانت تبيع ما حمله عنها ابنها الجاحظ بعد أن شب عن الطوق ، وهو الخبز وصغار السمك بأحد الأسواق التى كانت تنتشر عـلى أنهار البصرة الكثيرة وتسـمى بأسماء هذه الأنهار وكان هذا السوق يسمى بسوق سيحان •

ولقد رؤى الجاحظ يبيع الخبز وصغار السمك بهذا المكان(٧) ، وكانت الكتاتيب فى ذلك الوقت منتشرة فى كل مكان لتعليم الناشـئة ، وكانت تشبه المدارس الأولية فى أيامنا هذه من جهة استيعابها لجميـع الأطفال من مختلف الطبقات بلا استثناء غاية ما فى الأمر أن الاختلاف اليها كان بمحض اختيار أولياء الأمور دون الزام لهم من الدولة،لأن الناس فى ذلك العصر كانوا ينظرون الى العلم نظرة تقديس واجـلال ويرونه ضرورة حتمية لا مناص منها بالنسبة للخاصة والعامة ، فهـو سلم الوصول الى قمة المجد والوسيلة الوحيدة للفوز بوظيفـة ما فى ديوان ، من الـدواوين أو لدى تاجـر من التجـار الموسرين الذين يحتاجون الى كاتبين حاسبين من الشـباب وكان ذلك يمثل أمنيـة من أسمى أمنيات الفقراء وأبناء العامة فى ذلك المجتمع الرأسمالى الطبقى، الذى كان المعدمون يعانون فيه صنوف الشقاء وألوان الحرمان !!

كان الأطفال من أتراب الجاحظ فى مجتمع البصرة يختلفون الى الكتاتيب ، وكان آباؤهم وأولياء أمورهم يحثونهم على ذلك ويحرصون على انتظـام أبنائهم ومثابرتهم عليـه بل ويغرون معلـميهم بزجرهم واخافتهم بالضرب والجلد اذا ما أنسوا فيهم تقصيرا أو اهمالا ، فقد

---

(٧) ضحى الاسلام جـ ١ ص ٣٨ والجاحظ لكمال زكى ص ١٤ •

ذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سليم ابن رآه مسنا كان يدع الكتاب ويلعب بالكلام فكتب الى معلمه :

ترك الصلاة لأكلب يلهو بهـــا طلب الهراش مع الغواة الرجس
فاذا خـــاوت فعضـــه عـــلامة أوعظه موعظـــة الأديب الأكيس
واذا هـــممت بضربه فبـــدرة واذا ضربت بهـــا ثلاثا فاحبس

ولكن هدف هؤلاء العامة أو بعضهم ــ على الأقل ــ كان ينحصر فى أن يحفظ أبناؤهم القرآن الكريم، ويتعلموا مبادىء القراءة والكتابة والحساب ويقفوا على بعض المعلومات الدينية التى لابد منها حتى يستطيع أحدهم عن طـــريق ذلك الالتحاق بعمـــل يدر عليه دخلا معقولا يقيه الفـــاقة وذل السؤال .

كانت أم الجاحظ من هذه الطـــائفة البائسة المعـــذبة التى قلمت أظافرها نوازل الأيام وأذهبت أحداث العصر الدامية طمأنينة نفوسها، وقتلت طمـــوحها فوقفت بها تطلعاتها وآمـــالها عند مجرد اللهفـــة الى الحصول على ما يسد الرمق ويستر العورة من طريق مأمون ، وحسبها من طلب العـــلم ما يعين على ذلك وهو هـــين الشأن ضئيل المئـــونة ، لا يتجاوز أرغفة من الخبز المتاح تدفـــع فى نهاية الأسبوع الى معـــلم الكتاب كائنا ما كان تعليقه أو شعوره تجاه نوعيتها فذلك غاية الوســـع وجهد الطاقة . أما أن يتجـــاوز الجاحظ قـــدره ويعدو طوره ويتشـــبه بأبناء الموسرين وعلية القوم فى عدم الاقتصار فى التعليم على مرحلة الكتاب ، وتعديها الى الذهاب الى حلقـــات المساجد والاختـــلاف الى هؤلاء الذين يسميهم الناس بالعلماء فذلك بطر ما بعده بطر ، وتجاهل لما عليه حال الأسرة من بؤس وشـــقاء لا يكفه عنه ــ فى نظر الأم ــ الا أن تضيق بسلوكه وتظهر أمامه التبرم والشكوى والتأنيب والتقريع،

---

(٨١) عيون الأخبار ج ٢ ص ١٦٧ .

مهما أثقل على نفسه ، ودفعه حب مساعدتها وحمل العبء عنهـا الى المزاوجة بين الاختلاف الى المسجد لتلقى العلم والذهاب الى السوق لأنها تريد أن يتفرغ بكليته للضرب فى الأرض مثل اقرانه من الشـباب حتى يعيش واياهـا فى بحبـوحة من العيش ، ومن ثم فانهـا لم تكن تفتأ تذكره بتقصيره فى حقها وحق نفسها • عـاد الى المنزل ذات يوم وهو جائع فطلب من أمه بعض الطعام فذهبت وعادت وهى تحمل طبقا عليه كراريس من تلك التى أودعها البيت ، فلما سألها : ما هذا يا أماه أجابت فى سخرية بأنه نوع من الطعام الذى يحضره اليهـا كل يوم ، وكأنها تريد أن تقول له : وأين ما تدخل به على من طعام كذلك الذى يعود به أمثالك من الشباب الى أمهـاتهم ؟ وهو تصرف لا يخـلو من سخرية طبعت عليها روح الأم وورث خصائصها ابنها عنها •

المهم أن الأمر أن أبا عثمان قد ساءه هذا الموقف وأحزنه ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة فقد تبين له أن أمه على حق وأن البيت يخلـو من الطعام ، وليس به رغيف واحد فماذا يفعل ؟

لقد خرج من فوره الى المسجد حزينا كئيبا جائعا ، وصمم بينه وبين نفسه على أن يجلس هذه المرة الى أحب أساتذته اليـه وأقربهم الى نفسه : أبى عمران مويس بن عمران » فما ان جلس اليه حتى كاشفه بما كان بينه وبين أمه ، فلم يكن من شيخه هذا الا أن اصـطحبه الى منزله وأعطاه خمسين دينارا دفعة واحدة •

ولنا أن نتصور وقع هذا الموقف فى نفسه • اننى أتخيله وقد كاد يخرج من ثيابه فرحا ودهشة لوقوع هذا المبلغ الضـخم فى يده لأول مرة ، ولكنه ما يكاد يفيق من ذهوله حتى يستأذن شيخه وينطلق الى السوق مسرعا ليشترى أنواعا مختلفة ذات قيمة من الأطعمة كالدقيق والزيت والتمـر والزبيب وغير ذلك ، ثم يكترى عددا من الحمـالين ،

يحملون ذلك ويتبعونه به الى دار أمه .. ويطرق الباب وما ان تفتح العجوز ، وترى ابنها والحمالين وراءه حتى تنفرج أساريرها عن ابتسامة مندهشة مبهورة ، وتتلاحق الكلمات على لسانها فتنطق بها مثلغثمة : ما هذا يا عمرو ؟ فيجيبها وحيدها ووارث سخريتها فى سخرية مشوبة بالثقة ! « من الكرريس التى قدمتها الى »(٩) .

شغفه بالعلم :

وقد عاش الجاحظ أيام حياته خلال حقبة زمنية ، ازدهرت فيها الثقافة وتم امتزاج العرب بالعجم ، وأصبح العرب قادرين على استيعاب الثقافات الأجنبية والخوض فى مسائلها ، وكانت مجالس العلم بالبصرة (موطن الجاحظ) تغص بالعلماء وطلاب العلم حيث تثار المناقشات فى شتى المسائل ، والانسان ابن بيئته ، والجاحظ بطبعه كان ذكيا حاد الذهن متوقد القريحة ، قوى الملاحظة ، سريع الادراك ، شديد الطموح ، محبا للعلم شغوفا بالمطالعة ، متعشقا للنظر فى الكتب والاختلاف الى مجالس العلماء ، لا يمل القراءة ولا مناقشة مسائل العلم ، ولا يريد أن يتفلت منه أمر قبل الاهتمام به ، ولا تمر به ظاهرة دون أن يسبر غورها ، ويكشف عن حقيقتها ويصل الى أسرارها .

« سمع فى طفولته خرافة مؤداها أن المكلوب ينبح ويشتد عطشه ويكون بوله على هيئة الكلاب الصغيرة ، وظل هذا الاعتقاد يحير فكره ويبلبل خاطره الى أن حدث ذات يوم أن كلبا هجم على أحد أترابه فى الكتاب وهو قائم يمحو لوحه فعض وجهه دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذى دون العظم الى شطر خده ، فرمى به ملقيا على وجهه وجانب شدقه ، وترك مقلته صحيحة ، وخرج منه الدم

---

(٩) د. أحمد كمال زكى . الجاحظ ص ٢١ ود. شوقى ضيف العصر العباسى الثانى ص ٥٨٨ ود. خفاجى « أبو عثمان الجاحظ » .

ما ظننت أنه لا يعيش معه ، وبقى الغلام مبهوتا قائما لا يبس وأسكته الفزع وبقى طائر اللاب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتاب وليس فى وجهه من الشطر الا موضع الخيط الذى خيط ، فلم ينبح الى أن برىء ولا هر ولا دعا بماء،حتى اذارآه صاح : ردوه ولا بال جروا ولا علقا ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير»(١٠)

وقد روى الجاحظ هذه الرواية فى الحيوان وهو ابن سبعين على الرغم من أنها وقعت فى طفولته فلم يهمل من دقائقها وتفاصيلها شيئا وهذا دليل على ما اتصف به من ذكاء وقوة ملاحظة ويقظة ذاكرة .

والمهم فى الأمر أنه عاش بكل تلك المواهب أحداث عصره ، ورأى كيف استطاع الموالى من عجم الفرس أن يستولوا على مقاليد الحكم ويبسطوا سلطانهم فى القصر والمسجد والسوق ومجالس المناظرات ، كما شاهد مواكبهم وهى تتوقف أمام قصور البصرة وعلى ضفاف أنهارها الكثيرة كما عايش قصص كثيرين من أغمار الناس الذين وصلوا الى أرفع المناصب عن طريق العلم والثقافة ، فلم يجد أمامه بدا وهو الرجل الطموح الفقير الحال المغمور النسب اليتيم النشأة المشوه الخلقة الا أن يجد فى تحصيل العلم ويقسو على نفسه فى سبيل ذلك علنه يستطيع تعويض ما سلبته الحياة اياه وحرمته منه وأن يثبت وجوده فى عصر تضخمت فيه الأنانية واستبدل فيه الناس الأثرة بالايثار وأصبح شعارهم « خذ ما تستطيع برغم من لا يستطيع » فوجه همته الى حضور مجالس العلم والى النظر فى الكتب يعب منها وينهل ، ولقد بلغ الغاية فى ذلك وصار مضرب المثل فيه .. روى ياقوت فى معجم الأدباء(١) قال « حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب

---

(١٠) الحيوان جـ ٢ ص ٥ .

(١١) وأبو هفان كان اخباريا رواية مصنفا ـ هامش ص ٥ مقدمة الحيوان جـ ١ تحقيق عبد السلام هارون .

الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى أنه كان يكرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » •

شخصية الجاحظ :

كانت الظروف التى أحاطت بطفولة الجاحظ وصباه قاسية ولكنها لم تفل من غربه أو تضعف من عزيمته لأن طموحه كان أقوى منها ، بل ان قسوتها كانت حافزا على المضى فى طريقه الذى رسمه لنفسه ، والوصول الى بغيته المنشودة ، بل وربما كانت عاملا مهما فى تكوين شخصيته •

نعم ان الجاحظ قد عاش عصرا ماديا معقدا تقاس فيه الأمور بمعيار المادة وحدها ولا شىء غير ذلك حتى فى نظر العلماء أنفسهم ، وهم الصفوة المنتقاة من أبناء الأمة الذين كان ينتظر منهم وهم حملة مشاعل العلم ، ومصابيح الثقافة وأئمة الأمة أن يكون سلوكهم نبراسا يهتدى به الحائرون فى متاهات الحياة والمدلجون فى ظلمات ماديتهم الكثيفة المعقدة ولكن طبيعة العصر على جميع أهله •

حكى الجاحظ فى كتابه الحيوان حوارا جرى بينه وبين شيخه الأخفش وقد استعصى عليه فهم كتبه فى النحو ، قال له الجاحظ : « أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها وما بالك تقدم العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟

قال الأخفش : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذى تدعونى اليه قلت حاجتهم الى فيها ، وانما كانت غايتى المنالة فأنا أضع بعضها هذا الوضع

المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التمـاس ما لم يفهمـوا »(١٢)
واذن فالعلم فى عصر الجاحظ كل شىء وهو الطريق المعبدة الى قمـة المجد ، وعليه المعول فى تحصيل الثروات وادراك الرغائب ، فماذا يمنع أبا عثمان أن يجرب حظه وقد أنس فى نفسه المقدرة والكفاءة المعينتين على ذلك من حدة العقل ونصاعة الفهـم وقوة الحافظة ، لقـد أخلص الجاحظ نفسه لطلب العلم وعكف على تحصيل المعرفـة ، فعب من كل معين وارتوى من كل منهل فى فروع العلم والأدب حتى أصبح شـيخ البلغاء وامام المتكلمين وعالم العصر الذى لا يشق له غبار •

ولقد بلغت ثقة الرجل بنفسه فى مجال الأدب والمعرفة درجة أقل ما يليق بوصف صاحبها أنه لم يكن يؤمن بكلمة مستحيل !

واسمع اليه يقول « اذا سمعت الرجل يقول : ما ترك الأول للآخر شيئا فاعلم أنه لا يريد •

ولقد كان علم الجاحظ وأدبه كفيلين بأن يجعلاه واحدا من ثلاثة رجـال يحسد عليهم الأمـة الاسلامية ثابت بن قـرة الصابىء هم : عمر بن الخطاب والحسن البصرى والجاحظ ، وكان من دواعى هـذا الحسد بالنسبة للجاحظ من وجهة نظر ثابت بن قرة أن الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدره المتقدمين والمتأخرين • ان تكلم حكى سحبان فى البلاغة ، وان ناظر ضارع النظام فى الجدل وان جد خرج فى مسلك عامر بن عبد قيس • كتبه رياض زاهرة ورسائله أفنان مثمرة•• الخلفاء تعرفه والأمراء تصافيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان وبين الفطنـة والعلم وبين

---

(١٢) الحيوان جـ ١ ص ٤٥ •

الرأى والأدب وبين النثـر والنظم وبـين الذكاء والفهم ، طال عمـره وغشت حكمته وأوتى الحكمة وفصل الخطاب »(١٣) ٠

ولقد أحسن الجاحظ الذكى استخدام سلاح عصره فاغتنى بعـد فقر وشبع بعد جوع واشتهر بعد خمول ، وقد روى عنه قوله :

أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخـل الى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ولى ضيعة لا تحتاج الى تجديد وتسميد »(١٤) ٠

ولكن طموحه لم يقف به عند حد التأليف والفوز بالجوائز فحسب فلم يكن ذلك وحده بالذى يشبع نزعة طموحه التى لم تكن تقف به عند حد ٠٠ وكأنى به وهو الرجل الفقـير المشوه الخلقة الذى ذاق وهـو صغير مرارة اليتم والفقـر واكتوى بنار السخرية من أتراب طفـولته الذين لم يكن يعدم تطاولهم عليه بحسن الخلقة وجمال الهيئة ونصرة الأب وسعة ذات اليد فى الوقت الذى لا يستبعد فيه أنه كان يثبت لهم فى الكتاب أمام معلمهم أنه أحد منهم ذكاء وأحسن منهم فهما وأكثـر منهم استيعابا ، فيقتنعون بينهم وبين أنفسهم أن بامكان مثله أن يصل الى قمة المجد لو أتيح له بعض ما هم عليه من نعمة ويسار،فلا يجدون تجاه احساسهم هذا من متنفس لاضطغانهم عليه الا أن يسخروا منه ويتندروا به مهما لاقوا من بشاعة رده ومرارة لسانه ٠٠ أقـول كأنى به وقد سيطرت عليـه كل هذه المشاعر وسـنحت له الفرصة لتـأكيد

---

(١٣) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٩٨ ٠

(١٤) الجاحظ معلم العقل والأدب ص ٣٩ ٠

شخصيته واثبات وجوده — بتفتح أبواب المجد أمامه دون أن يستعصى عليه ولوج واحد منها — قد أضر على أن يسير فى درب العلا حتى نهاية الشوط لكى يتسنم الذروة ويقتعد القمة التى تتطاول اليها أعناق العظماء ولا يكاد يسمو فوقها الا منصب الخليفة نفسه •

فقد تصدر الجاحظ ديوان الرسائل أيام المأمون ، ولكنه لم يبق به سوى ثلاثة أيام ثم استعفى من العمل به فأعفى ، ذلك لأن الأديب يؤثر العمل بحرية وينفر نفارا شديدا من قيود الروتين ، وكذلك وجد أبو عثمان أن العمل الرسمى تقييد لحريته فتركه ولم يطق البقاء به ، وكأن الأمر فى نظره مجرد اثبات للوجود فحسب ، ومادام قد وصل الى الغاية التى يكون بها « شجو حساده وغيظ عداه » فهذا يكفيه ولا ضير عليه من العودة الى هواء الحرية المطلق من جديد(١٥) •

يقول الأستاذ شفيق جبرى معلقا على هذا الحادث : ان رجلا يقول فى مدح التجار « أودع الناس بدنا وأهنأهم عيشا وآمنهم سربا لأنهم ملتمسو البياعات ، ولا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ولا يستعبدهم الضرع لمعاملاتهم » للطماح الى أفق يشبه أفق التجار ، يتمتع فيه بدعة البدن وهناء العيش وأمان السرب »(١٦) •

واذا كانت ظروف عصر الجاحظ قد شكلت شخصيته بهذه البيئة وطبعتها بذلك الطابع فجعلته أديب عصره وعالم زمانه،فانها قد أكسبته صفة أخرى عرف بها أدبه وصارت ميزة من أبرز مميزاته وهى صفة السخرية والتهكم !!

---

(١٥) د٠ أحمد أحمد منصور : البخلاء للجاحظ وتصويره للمجتمع العباسى ص ١٠٥ مطبعة الجبلاوى بالقاهرة •

(١٦) الجاحظ معلم العقل والأدب ص ٤٦ •

واذا ما حاولنا رجع هذه الطبيعة الى منابعها الأصلية وجدنا أن صاحبها نفسه قد خلق مطبوعا على الميل الى التهكم ، ثم جاءت ثقافته فقوت لديه هذا الاتجاه ، ذلك أن العصر الذى كان يعيش فيه كان أشد ما يكون احتياجا الى هذه السخرية فهو عصر غريب عزل فيه الحق جانبا ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن عصر استفاضت فيه الزندقة وشاعت فيه طائفة من الخرافات فى طبقات العامة وبعض العلماء والمؤلفين ، فلم يجد الجاحظ بدا من التنبيه على هذه الخرافات وهذا الضلال والقيام بما يلزم من نصرة للحق،ودحض للباطل وتفنيده ... يقول فى كتاب الحيوان « زعم بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد وأن الخنزير خلق من عطسة الفيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفأر وشكو الى نوح ذلك سأل ربه الفرج فأمره أن يأمر الأسد فيعطس فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفياهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهما شكوا ذلك الى نوح فشكا ذلك الى ربه فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح زوج خنازير فكفياهم مؤنة رائحة النجو ، وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاصين وقد أنكرنا أن يكون الفأر تخلق الا فى أرحام اناثها من أصلاب ذكورها(١٧) .

هذا ولم تكن تعليقات الجاحظ مجرد نتف مبعثرة هنا وهناك ، ولا على بعض الحوادث العارضة والمواقف النادرة ، ولكنها امتدت فشملت كل أحداث عصره التى انعكست على صفحات أدبه ، وكأنه يريد تقويم مجتمعه عن طريق السخرية اللاذعة مادام — وهو أديب مسلاحه قلمه — لا يستطيع أن يفعل ذلك بسواه .

---

(١٧) الحيوان جـ ٥ ص ١٦ .

مؤلفات الجاحظ ومنزلتها :

تحدث العلامة المحقق الأستاذ عبد السلام هارون فى مقدمة تحقيقه لكتاب الحيوان(١٨) عن مؤلفات الجاحظ فقال :

خرج الجاحظ عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا فى ألوان شتى من المعرفة رأى أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤هـ .. ذلك أقصى تقدير وصلت اليه كتب الجاحظ الذى يقول فيه المسعودى « ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتبا منه » على أن أدنى ما تنزل اليه فى التقدير أن تكون مائة ونيفا وسبعين كتابا ، قال ابن حجر فى لسان الميزان « وسرد ابن النديم كتبه وهى مائة ونيف وسبعون كتابا » .

وياقوت فى معجم الأدباء قد ذكر فهرست كتبه ورسائله فأثبت منها مائة وثمانية وعشرين مصنفا » .

ثم يقول الأستاذ هارون معقبا « وليس بنا أن نحقق مبلغ عدد هذه الكتب ولكن ما نريد أن نقول ان الجاحظ فى الرعيل الأول من مؤلفى عصره وكتابه ، والآن نسأل أين ذهبت هذه الكتب جميعا ، وفى أى مطرح طوح بها الزمان ؟ لقد ضرب الدهر عن كثيرها فعادت فى مثل صنعة الساحر ، لمعت حينا ثم انكفأت !!

أفنقول ان أعاصير الخلاف المذهبى عصفت بها ، فلم ضاعت آثار غيره من أهل السنة والجماعة ؟

الحق أن الخمود الذهنى وهبوط الهمم كان لهما معظم الأثر فى ضياع هذه النفائس وفقدها والحق أن الفوضى السياسية التى منيت

---

(١٨) ج ص ٧ ط البابى الحلبى بالقاهرة .

بها الأمم الاسلامية فى مسائها الأول والتى كانت قائمة ــ فى أكثر ما تقوم ــ على التدمير والتخريب والانتقام ــ جعلت تهدم فى هذا الصرح الفكرى حتى أتت على كثير من قواعده ولم تبق الا وشلا من محيط ؛ ومهما أحزننا فقد كثير من آثار الجاحظ فان مما يجلب الينا العزاء أن تبقى الأيام منها قدرا لا يستهان به ولا بنفاسته ، قد سار بعضه بين الأدباء فكان له فضل كبير فى تقويم ألسنتهم ، وتأدبهم ، وحمت بعضه الآخر خزائن متناثرة فى أرجاء المعمورة .

صنع الجاحظ هذه الكتب جميعا ولم يكن همه هم غيره من المؤلفين فى الجمع والرواية والحفظ وانما كان وكده أن يبتكر وأن يطرف وأن يخلق للناس بديعا يمسح على جميعها بالدعابة والهزل ، ويشيع الفكاهة فى أثناء الكلام فجمع بذلك قلوب القارئين اليه والستولى منهم بذلك على شتى ميولهم الى ما يكتب فصبوا اليه وأغرموا به غراما .

قال أبو القاسم السيرافى : حضرنا مجلس الأستاذ أبى الفضل بن العميد فجرى ذكر الجاحظ فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به وسكت الوزير عنه ، فلما خرج الرجل قلت له : سكت أيها الأستاذ عن هذا الرجل فى قوله مع عادتك فى الرد على أمثاله ! فقال : ام أجد فى مقابلته أبلغ من تركه على جهله ولو وافقته وبينت له لنظر فى كتبه وصار بذلك انسانا يا أبا القاسم ، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ولم أستصلحه لذلك والمسعودى وهو ممن بعد فى خصوم الجاحظ ــ لكونه شيعيا وكون الجاحظ معتزليا ــ يقول فى مروج الذهب فى نعت كتب الجاحظ :

وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان اذا تخوف ملل القارىء وسامة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة » .

نهاية الجاحظ :

وقد عرفنا أن الجاحظ ـ رحمه الله ـ قد عاش حتى بلغ السادسة والتسعين من عمره وأن وفاته كانت سنة ٢٥٥هـ فى خلافة المعتز بالله العباسى .

وقد روى ياقوت الحموى أن « أحمد بن يزيد بن محمد المهلبى حدث عن أبيه فقال : قال لى المعتز بالله يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام النعماء ... قال وكان ذلك سنة خمس وخمسين ومائتين .

ولقد أصيب رحمه الله بالفالج فى أخريات أيامه ، كما توطأ عليه النقرس ، وقد روى ياقوت عن المبرد أنه قال « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو جز بالمناشير ما شعرت به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب لآلمه وأشد من ذلك ست وتسعون أنا فيها ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

ويروى أن موته حدث بسبب سقوط مجلدات الكتب عليه(١٩) ، خلال رضه هذا .

كتاب الحيوان :

واذا كان الجاحظ رجلا أديبا ، غزير العلم ، واسع الثقافة ، عميق الاطلاع ، متعدد الجوانب ، محيطا بكل ما تهيأ للمثقفين من أبناء

---

(١٩) مقدمة الحيوان جـ ١ ص ٥ تحقيق عبد السلام هارون .

عصره من معارف كان يجمعها اطار الأدب ـ آنذاك ـ ويصدق على من ألم بها وتمكن منها أنه أديب ، فان كتابه الحيوان يقف على رأس القائمة العجيبة لمؤلفاته فى هذا المجال ، فهو السجل الحقيقى لمعلومات صاحبه ، والمرآة المجلوة التى انعكست على صفحتها الصافية جميع العناصر المكونة لثقافته والمصب الذى تنتهى اليه روافد علمه وأدبه ، كما أنه الصورة الناطقة بقدرة الجاحظ العجيبه على التفنن فى الاساليب، والبراعة الفائقة فى التنقل من موضوع الى موضوع دون اثقال أو املال ، والذكاء المفرط فى تخير الحجج المقنعة بصحه رأيه وصواب أو املال ، والذكاء المفرط فى تخير الحجج المقنعة بصحة رأيه وصواب منطقه وسلامة تفكيره ، كل ذلك مع خفة روح ، وحلاوة ظرف يأسران القارىء ويشدان تفكيره بما يدخلانه على نفسه من وسائل الترويح المتمثلة فى النكات والملح وألوان الطرائف المسلية المثيرة للضحك فى أشد لحظات الجد ، فيواصل القراءة أشد ما يكون نشاطا وقدرة على المتابعة والاستيعاب .

وقد ألف الجاحظ كتاب « الحيوان » وأهداه الى « محمد بن عبد الملك الزيات » الذى كان وزيرا للخليفة « الواثق بن المعتصم » ثم قتله أخوه الخليفة المتوكل سنة ٢٣٣هـ ، وكانت منحة ابن الزيات للجاحظ مقابل اهدائه « الحيوان » اليه مخسة آلاف دينار كما سبق أن عرفنا والذى يقرأ فى «الحيوان» يجد أن الجاحظ قد كتبه وهو مريض بالشالج الذى لازمه أكثر من اثنتين وعشرين سنة(٢٠) .. فقد حدثنا فيه عن مرضه الذى كان ـ فى رأيه ـ مانعا من بين موانع بلوغ الارادة فيه .

« وقد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه،

---

(٢٠) ابن خلكان جـ ٣ ص ٤٧٣ ومقدمة الحيوان جـ ١ ص ٢٦ تحقيق عبد السلام هارون ، وشوقى ضيف : العصر العباسى الثانى ص ٥٩١ .

أول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب والرابعة أنى لو تكلفت كتابا فى طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ثم كان من كتب العرض والجوهر والطفرة والتولد والمداخلة والغرائز والتماس لكان(٢١) أسهل وأقصر أياما وأسرع فراغا لأنى كنت لا أفزع الى تلقط الأشعار وتتبع الأمثال ، واستخراج الآى من القرآن والحجج من الرواية مع تفرق هذه الأمور فى الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال ، فان وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف أو من تقطيع نظام، ومن وقوع الشىء فى غير موضعه فلا تنكر بعد أن صورت عندك حالى التى ابتدأت عليها كتابى .... فان نظرت فى هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ولا يذهب مذهب التعنت ، ومذهب من اذا رأى خيرا كتمه واذا رأى شرا أذاعه »(٢٢) .

مؤلفات فى علم الحيوان :

ولم يكن الجاحظ أول من ألف فى الحيوان ، بل كانت هناك كتب سبقه أصحابها فى هذا الباب مع الفارق الجوهرى بينه وبينهم فى طريقة تناول الموضوع والاتجاه فيه كما توقفنا على ذلك المقدمة التى صدر بها الأستاذ عبد السلام هارون الجزء الأول « للحيوان » « سبق اليونانيون أسلافنا العرب الى التأليف فى علم الحيوان .. قال صاحب كشف الظنون فى حديثه عن علم الحيوان :

وفيه كتب قديمة واسلامية منها كتاب الحيوان لديموقراطيس ، ذكر فيه طبائعه ومنافعه وكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ، تسع عشرة مقالة ، نقله ابن البطريق من اليونانى الى العربى وقد يوجد سريانيا

---

(٢١) كل هذه الألفاظ مصطلحات كلامية كان المتكلمون كالنظام وغيره يتباحثون فيها .

(٢٢) الحيوان جـ ٤ ص ٢٠٩ تحقيق عبد السلام هارون .

نقلا قديما أجود من العربى ، ولأرسطو أيضا كتاب فى نعت الحيوان الغير الناطق ، وما فيه من المنافع والمضار » •

« ونستطيع أن نقول : ان الجاحظ أول واضع لكتاب عربى جامع فى علم الحيوان ، وقد كان قبله وفى عصره محاولات شتى لطائفة من العلماء يتحدثون فيها عن الحيوان نذكر منها :

كتب الابل : لأبى حاتم السجستانى (٢٤٨هـ) وللأصمعى (١٢٢ — ٢١٦) ولأبى عبيدة (١١٠ — ٢٠٩هـ) وللنضر بن شميل (١٢٢ — ٢٠٣هـ) ولأبى زياد الكلابى ولأحمد بن حاتم الباهلى(٢٣١) •

كتب الخيل :

لابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦هـ) وابن الأعرابى (١٥٠ — ٢٣١) وأبى عبيدة وأبى جعفر محمد بن حبيب البغدادى (٠٠٠ — ٢٤٥) وأبى محلم محمد بن هشام الشذيبانى (٠٠٠٠ — ٢٤٥) ولأحمد بن حاتم•

كتب الغنم والشاء :

لأبى الحسن الأخفش (٢١٥) وللنضر بن شميل وللأصمعى •

كتب الوحوش :

للأصمعى ، ولأبى زيد أستاذ الجاحظ (١١٩ — ٢١٥) ولأبى حاتم السجستانى •

كتب الطير :

لأبى حاتم السجستانى ، والنضر بن شميل (١٢٢ — ٢٠٣)وأحمد ابن حاتم الباهلى •

كتاب البازى والحمام والحيات والعقارب : لأبى عبيدة :

كتاب الفرس : للأصمعى :

كتاب النمل والحشرات :

لأبى حاتم السجستانى ، وللأصمعى كتاب فى النحل والعسل .

الفرق بين اتجاهات مؤلفى تلك الكتب واتجاه الجاحظ فى الحيوان :

والناظر فيما تحتويه هذه الكتب يجد أنها لم تؤلف للقصد العلمى الخالص ، وانما أريد بها أن تكون باحثة فى اللغة أولا فهى بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له ، فهى لا تبحث فى طبع الحيوان وخصائصه بحثا ، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعاده وانما تجعل همها الأول والثانى هو اللغة وقد يكون منها أن تبحث البحث العلمى ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعة القول ، ومن نماذج نصوص تلك الكتب ما جاء فى أول كتاب الابل للأصمعى(٢٣) :

« قال أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى : أجود وقت يحمل فيه على الناقة أن تجم سنة ويحمل عليها فيقال : قد أضربت الفحل (بضم الهمزة) وأضربها الفحل ، فاذا حمل عليها كل عام فذلك الكشاف (بكسر الكاف) يقال ناقة كشوف ، وقد اكشف بنو فلان العام فهم مكشفون : اذا لقحت ابلهم على هذا الوجه قال رؤبة :

« حرب كشاف لقحت اعشارا » ...

ويقول أيضا :

ومما يذكر من ألوان الابل ، يقال بعير أحمر وناقة حمراء ، واذا بولغ فى نعت حمرته قيل : كأنه عرق أرطاة . ويقال أجلد الابل وأصبرها الحمر ، فاذا خلط الحمرة قنوء فهو كميت ، فاذا خلط الحمرة صفرة قيل : أحمر مدمى ، قال حميد بن ثور :

---

(٢٣) مقدمة الحيوان لعبد السلام هارون جـ ١ ص ١٦ .

وصار مدماها كميتا وشبهت قروح الكلى منها الوجار المهدما »

وهذا آخر كتاب الابل للأصمعى :

« أسماء عدد الابل : الذود : ما بين الثلاثة الى العشرة،والصرمة: القطعة التى ليستبالكثيرة ، والصبة (بضم الصاد) فوق ذلك الى العشرين الى الثلاثين الى الأربعين — والعكرة : الى الخمسين الى الستين الى السبعين .

والهجمة : المائة وما داناها ، والهنيدة مائة — والعرج : الابل اذا كثرت فبلغت مائتين قيل عرج ، والبرك : ابل القوم جميعا التى تروح عليهم . قال متمم :

ولا شارف حبشاء ريعت فرجعت حنينا فأبكى شجوها البرك أجمعا

أما كتاب الجاحظ فهو كتاب أدبى بالدرجة الأولى أى أنه مقالات أدبية عن الحيوان وأجناسه وطباعه وأحواله وشاها صاحبها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأبيات الشعر الرائعة والحكم البليغة الى جانب النوادر الطرفة والقصص اللطيفة التى يستروح بها القارىء ويظل نشيط الذهن لايتطرق الملل الى عقله من جراء كده بالجد الخالص .

يقول : « قد عزمت والله الموفق أن أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب الى باب ، ومن شكل الى شكل فانى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة اذا طال ذلك عليها ، وما ذلك الا فى طريق الراحة التى اذا طالت أورثت الغفلة»(٢٤) ويقول فى موضع آخر :

(٢٤،٢٥) الحيوان جـ ١ ص ٩٣ والعصر العباسى الثانى ص ٥٩٤ .

« ومتى خرج القارىء من آى القرآن صار الى الأثـــر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر ثم يخرج من الخبز الى شعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس سداد حتى يفضى الى مزح وفكاهة والى سخف وخرافة(٢٥) .

فالكتاب إذن نثر علمى متأدب نستنبط منـــه الحقائق العلمية عن الحيوان حسب مفهوم ذلك العصر ، ولكن بعبارة أدبية طلية لا يمـــل القارىء متابعتها والاستغراق فيها ، فليس هو بالكتاب العلمى الجاف ولا اللغوى المتقعر ، ولكنه الصورة الواضحة المعالم لشخصية الجاحظ الطريفة الخفيفة الظل الواسعة الثقافة .

مرجع الجاحظ فى تأليف الحيوان :

والذى يقرأ كتاب الحيوان ، بامعان وتدقيق يتضح له أن الجاحظ قد اعتمد فى تأليفه على خمسة أمور :

١ ــ القرآن الكـــريم والأحاديث النبوية الشريفـــة ، حيث كان يسوق منهما ما يراه مناسبا للفكرة التى يتناولها .

٢ ــ الشعر العربى وبخاصة البدوى منه لأنه تحدث كثـــيرا عن الحيوان بنوعيه المستأنس والوحشى .

فالعرب تحدثوا عن الابل فى شعرهم حديثا طويلا لأنها كانت تمثل عنصرا حيا من عناصر حياتهم فى حلهم وترحالهم ، وطعامهم وشرابهم، فهى حمولة السفر،والمدرة للبن والمدة باللحم للطعام وقرى الأضياف، وبالوبر لاتخـــاذ الخيام والفرش والأكســـية ، ولذلك أحبها العـــرب وخلدوها بأشعارهم وأسهبوا فى الحديث عنها فى تلك الأشعار ، فذكروا

---

(٢٥) المرجع السابق .

حملها ونتاجها ورأمها وحنينها وحلبها ، ولبنهـا وألوانها وأنسـابها وأصواتها ودعائها ورعيها وشربها وسيرها وسراها ، كما تحـدثوا عن الخيل حديثا لا يقل عن حديث الابل ، كما وفوا لكلابهم وشائهم ولا تكاد تجد قصيدة معدودة الا وللحيوان الأنيس فيها شأن .

أما الوحشيات ـ وفلواتهم مواطن غنية بها فلم يغفلوها ونطـق شعرهم بالأسد والنمر والذئب والثعلب والضب وغيرها .

وذكروا من الطيور النسور والعقبـان والرخم والحدأ والقطـا والحجـل .

والجاحظ يرى أن العرب والأعـراب منهم خاصة ثقفوا معرفـة الحيوان وبرعوا فى ذلك غاية البراعة واستوعبوا حاله وعاده وهو يقول فى ذلك :

« وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه أو قريبا فى أشـعار العرب والأعراب » .

ثم يذكر السبب فى جودة معرفة الأعراب للحيوان بقوله :

« وربما بل كثيرا ما يبتلـون بالناب والمخلب واللدغ واللسـع والعض والأكل فخرجت بهم الحـال الى تعرف حال الجانى والجارح والقاتل وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهـرب وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء »(٢٦) .

---

(٢٦) الحيوان جـ ١ ص ٢٠ .

كان اعجاب الجاحظ بالشعر العربى شديدا وثقته به لا تحد،لذلك فانه كان يتخذه وسيلة للدفاع عن أفكاره التى أثبتها فى « الحيـــوان » وحجة يحتج بها على أرسطو فى ادعائه أن العقاب تتصف بالجفاء على أولادها ، فيقول بعد أن يسرد قول أرسطو « هذا قول صاحب المنطق فى عقوق العقاب وجفائها لأولادها ، فأما أشعار العرب فهى تدل على خلاف ذلك قال لدريد بن الصمة :

وكل لجـــوج فى العنان كأنها ... اذا اغتمست فى الماء فتخاء كاسر
لها ناهض فى الوكر قد مهدت له ... كما مهدت للبعـــل حسناء عاقر

فالشاعر العربى فى نظر الجاحظ أقوى حجة لأنه أكثر فهما لطباع العقبان من أرسطو صـــاحب الفلسفة اليونانية ، والمـــراد من البيتين المذكورين : أن الخيول النشـــيطة المتمردة فى أعنتها عندما تضـــطرها الظروف الى النزول براكيبها فى الماء فانها تلين وتتجه همتها الى الخروج منه وأن هيئتها فى عبور الأنهار وقد نشر شعر معارفها وأذنابها على وجه الماء لتشبه هيئة العقاب التى تحنو فى وكرها على صغيرها وتبسط له جناحى رحمتها وشفقتها لتعلمه الطيران انها فى غاية اللطف والوداعة ولين الجانب فهى منصرفة بكليتها لفرخها كمـــا تنصرف امرأة حسناء عاقر لرجلها حيث تلين له وترفق به ، ولا تنشغل عنه بشىء حتى يشتد تعلقه بها واقباله عليها فلا يفكر فى غيرها ، وهذا من الجاحظ حب لكل ما هو عربى وانتصار للحجة العربية على ما سواها ممن يتعصب لهم دعاة الشعوبية حتى ولو كان المحتج عليه أرسطو نفسه .

٣ ــ أما المادة الثالثة التى اعتمد عليها الجاحظ فى تأليفه لهـــذا الكتاب فهى كتاب « الحيوان » لأرسطو وقد نقل عنه الجاحظ نصوصا ليست من الكثرة بمكان ولكنها نفيسة عظيمة القيمة .

---

(٢٧) المرجع السابق ص ٢٠ .

وصاحبنا رجل جرىء العقـــل ، عنيف الفكر ، فهو لا يقبـــل هذه النصوص بعلاتها بل يطرحها على المتحن ولا يطأطىء بفكره لها،وانما يصعد به عاليا ليرى وجه الحق فيها ، وقلما ترك واحدا منها الا تكلم فيه وعرضه على الحجة • فمن ذلك قوله :

« وقد ذكرصاحب المنطق أنه قد أبصر ثورا وثب بعـــد أن خصى فنزا على بقرة فأحبلها » وعقب على ذلك بقوله : « ولم نجد هذا عن معاينة ، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر وتضيق بتصـــديق هذا الشكل »(٢٨) •

ويقول أيضا « وقال أرسطو فى الفيل : هو أجرد الجـــلد ، فلذلك يشتد جزعه من البرد »•

ثم يرد على ذلك بقوله : « فان كان أجرد الجلد فمـــا قولهم فى أحاديثهم : طلبوا من الملك الفيل الأبيض ، والفيل الأبقع ، وجاء فلان على الفيل الأسود » •

وأحيانا يعتذر عن أرسطو بأن المترجمين لكتابه لم يحسنوا النقل ولم يتوخوا الدقة والمطابقة فيقول : «ولعل المترجم قد أساء فى الاخبار عنه ••• فكيف أسكن بعد هذا الى أخبار البحريين وأحاديث السماكين والى ما فى كتاب رجل ــ يعنى أرسطو ــ لعله ان وجد هذا المترجـــم أن يقيمه على المصطبة ويبرأ الى الناس من كذبه عليه ، ومن افســـاد معانيه بسوء ترجمته »(٢٩) •

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٢١ •

(٢٩) المرجع السابق •

٤ ــ والمادة الرابعة التى استقى منها الجاحظ أفكاره فى تأليف كتابه مجادلات متكلمى المعتزلة وفلسفتهم ومناظراتهم ومحاوراتهم ، فالجاحظ معتزلى وتلميذ لشيخ من شيوخ المعتزلة وهو « النظام » ولقد كثرت مناظرات المعتزلة ومحاوراتهم حول مختلف الأمور ، المهين والجليل منها ولذلك فان « الحيوان » معرض طريف لهذه المحاورات والمنازعات الكلامية خاصة الجزئين الأول والثانى منه فكثيرا ما نجد فيه: قال صاحب الكلب ، قال صاحب الديك قال صاحب الحمام ، وكانت المناظرة بين النظام ومعبد فى الكلب والديك أيهما أفضل من أكبر المناظرات التى ساقها الجاحظ حيث انها استغرقت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره فى الكلب والديك »(٣٠) .

٥ ــ والمادة الخامسة من مواد الكتاب هى تلك الخبرة الشخصية والولع الشديد بالمعرفة لدى الجاحظ « مما كان يفعه الى سؤال من يتوسم فيه العلم ، وكان بطبعه شعبيا مع أنه كان مقربا نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء فهو قد جالس الملاحين مرارا وسمع من أحاديثهم فمن ذلك ما يقول « وسمعت حديثا من شيوخ ملاحى الموصل وأنا هائب له ، ورأيت الحديث يدور بينهم » وأحيانا يخالط الحوائين ويقف منهم موقف المستمع الى الشكوى ، وفى ذلك يقول « وشكا الى حواء مرة فقال : أفقرنى هذا الأسود ومنعنى الكسب وذلك أن امرأتى جهلت فرمت به فى جونة فيها أفاعى ثلاث أو أربع فابتلعهن كلهن وأرانى حية منكرة »(٣١) .

---

(٣٠) العصر العباسى الثانى د. شوقى ضيف ص ٥٩٦ .
(٣١) مقدمة الحيوان ج ١ ص ٢٤ .

مختارات من كتاب الحيوان :

٢ ــ « عناية العلماء بالمالح والفكاهات »

« وقلت وما بال أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل وورثة الأنبياء وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء وكتب المفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهى والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات وكتب أصحاب المراء ، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية !! ألأنهم لا يحاسبون أنفسهم ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ولا لائمة الأدباء وشنف الأكفاء ومشنأة الجلساء ؟

فهلا أمسكت ــ يرحمك الله ــ عن عيبها والطعن عليها وعن المشورة والموعظة وعن تخويف ما فى سوء العاقبة الى أن تبلغ حال العلماء ومراتب الأكفاء ؟ !

فأما كتابنا هذا فسنذكر جملة المذاهب فيه وسنأتى بعد ذلك على التفسير ، ولعل رأيك عند ذلك أن يتحول وقولك أن يتبدل فتثبت أو تكون قد أخذت من التوقف بنصيب ان شاء الله(٣٢) .

٣ ــ مزج الهزل بالجد فى الكتاب

وهذا كتاب موعظة وتعريف وتفقه وتنبيه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده وتتفكر فى فصوله وتعتبر آخره بأوله ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت فى أثنائه من مزح لم تعرف معناه ومن بطالة لم تطلع على غورها ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأى علة تكلفت ،

---

(٣٢) الحيوان ج ١ ص ٢٥ .

وأى شيء أريغ بها ولأى جد اكتمل ذلك الهزل ولأى رياضة تجشمت تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد وأن البطالة وقار ورزانة اذا تكلفت لتلك العاقبة ، ولما قال الخليل بن أحمد : لا يصل أحد من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه قال أبو شمر : اذا كان لا يتوصل الى ما يحتاج اليه الا بما لا يحتاج اليه فقد صار مالا يحتاج اليه يحتاج اليه،وذلك مثل كتابنا هذا لأنه ان حملنا جميع مايتكلف قراءة هذا الكتاب على مر الحق وصعوبة الجد وثقل المئونة وحلية الوقار لم يصبر عليه مع طوله الا من تجرد للعلم وفهم معناه وذاق من ثمرته واستشعر قلبه من عزه ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكد والكثرة من السآمة ، وما أكثر من يقاد الى حظه بالسواجير وبالسوق العنيف وبالاخافة الشديدة »(٣٣) .

٣ ــ رضيع ملهم

زعم علماء البصريين أن طاعونا جارفا جاء على أهل دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبى يرتضع ويحبو ولا يقوم على رجليه فعمد من بقى من المطعونين من أهل تلك المحلة الى باب تلك الدار فسده ، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها بعض ورثة القوم ففتح الباب فلما أفضى الى عرصة الدار اذا هو بصبى يلعب مع أجراء كلبة وقد كانت لأهل الدار فراعه ذلك فلم يلبث أن أقبلت كلبة كانت لأهل الدار فلما رأها الصبى حبا اليها فأمكنته من أطبائها فمصها فظنوا أن الصبى لما بقى فى الدار وصار منسيا واشتد جوعه ورأى أجراءها تستقى من أطبائها حبا اليها فعطفت عليه فلما سقته مرة أدامت ذلك له وأدام هو الطلب .

---

(٣٣) ج ١ ص ٨ الحيوان والسواجير جمع ساجور وهو خشبة تعلق فى عنق الكلب وسجره شده به .

والذى ألهم هذا المولود مص ابهامه ساعة يولد من بطن أمه ولم يعرف كيفيـــة الارتضـــاع هو الذى هداه الى الارتضـــاع من أطبـــاء الكلبة • ولو لم تكن الهداية شيئا مجعولا فى طبيعته ما مص الابهـــام وحلمة الثدى ، فلما أفرط عليه الجوع واشتدت حاله وطلبت نفسه • وتلك الطبيعة فيه دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة الى الطلب والدنو • فسبحان من دبر هذا وألهمه وسواه ودل عليه(٣٤) •

٤ ــ طلب الأسد للملح

والأسد اذا أكثر من حسو الدماء ــ والدماء حلوة ــ وأكل اللحم واللحم حلو طلبت الملح لتتملح به كالحمض بعد الخـــلة ، ولولا حسن موقع الملـــح لم يدخله الناس أكثر طعامهم • والأسد يخرج للتملح فلايزال يسير حتى يجد ملاحة وربما اعتاد الأسد مكـــانا فيجده ممنوعا فلايزال يقطع الفراسخ الكثيرة بعد ذلك فاذا تملح رجع الى موضعه وغيضـــته وعرينـــه وغابه وعريســـته وان كان الذى قطع خمســـين فرســـخا »(٣٥) •

٥ ــ احتيال الحيات للصيد

حدثنا أبو جعفر المكفوف النحـــوى العنبرى وأخوه روح الكـــاتب ورجال من بنى العنبر أن عندهم فى رمال بلعنبر حية تصيد العصـــافير وصغار الطير بأعجب صيد ، زعموا أنها اذا انتصف النهار واشـــتد الحر فى رمال بلعنبر وامتنعت الأرض على الحافى وانتعـــل ورمض الجنـــدب غمست هذه الحية ذنبها فى الرمل ، ثم انتصبت كأنهـــا رمح مركـــوز

---

(٣٤) مقتطفات من كتب الأدب العربى (عن الحيوان) ص ٢٠ •

(٣٥) المرجع الســـابق ص ٢٧ والحمض ما أمر من النبـــات والخلة ما فيه حلاوة ، والعريسة مأوى الأسد ــ الحيوان ج ٣ ص ٢٦٠ •

أو عود ثابت فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة ، فاذا رأى عودا قائما وكره الوقوع على الرمل لشدة حره وقع على رأس الحية على أنها عود ، فاذا وقع على أسها قبضت عليه فان كان جرادة أو جعلا أو بعض ما لا يشبعها مثله ابتلعته وبقيت على انتصابها ، وان كان الواقع على رأسها طائرا يشبعها مثله أكلته وانصرفت ، وأن ذلك دأبها ما منع الرجل جانبه فى الصيف والقيظ ، فى انتصاف النهار والهاجرة ، وذلك أن الطائر لا يشك أن الحية عود وأنه سيقوم له مقام الجذل للحرباء الى أن يسكن اللحر ووهج الرمل .

وفى هذا الحديث من العجب أن تكون هذه الحية تهتدى لمثل هذه الحيلة وفيه جهل الطائر بفرق ما بين الحيوان والعود ، وفيه قلة اكتراث الحية بالرمل الذى عاد كالجمر وصلح أن يكون ملة وموضعا للخبزة، ثم أن ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار ، والرمل على هذه الصفة فهذه أعجوبة من أعاجيب الحياة »(٣٦) .

٦ ـ طريفة

قال أبو الحسن : كان واحد يسخر بالناس ويدعى أنه يرقى من الضرس اذا ضرب على صاحبه ، فكان اذا أتاه من يشتكى ضرسه قال اذا رقاه : اياك أن تذكر اذا صرت الى فراشك القرد ، فانك اذا ذكرته بطلت الرقية ، فكان اذا آوى الى فراشه أول شىء يخطر على باله ذكر القرد ويبيت على حاله من ذلك الوجع فيغدو الى الذى رقاه فيقول له : كيف كنت البارحة ؟ فيقول : بت وجعا ، فيقول : لعلك ذكرت القرد فيقول : نعم فيقول : من ثم لم تنتفع بالرقية »(٣٧) .

---

(٣٦) مقتطفات من كتب الأدب العربى ص ٣٥ عن الحيوان .
(٣٧) المرجع السابق .

٧ ــ احساس الحيوان بعدوه

والنعجة ترى الفيل والزنديل والجاموس والبعير فلا يهزها ذلك وهى لم تره قبل ذلك ، وعضو من أعضاء تلك البهائم أعظم ، وهى أهول فى العين وأشنع ، ثم ترى الأسد فتخافه ، وكذلك الببر والنمر ، فان رأت الذئب وحده اعتراها منه وحده مثل ما اعتراها من تلك الأجناس لو كانت مجموعة فى مكان واحد ، وليس ذلك عن تجربة ولا لأن منظره أشنع وأعظم ، وليس فى ذلك علة الا ما طبعت عليه من تمييز الحيوان عندها ، فليس بمستنكر أن تفصل الحمامة بين البازى والبازى كما فصلت بين البازى والكركى .

فان زعمت أنها تعرف بالمخالب فمنقار الكركى أشنع وأعظم وأفظع وأطول وأعرض فأما طرف منقار الأبغث فما كان كل سنان وان كان مذربا ليبلغه »(٣٨) .

٨ ــ الطاوس

قال وما الطاوس فأول ما تبيض فانها تبيض ثمانى بيضات ، وتبيض أيضا بيض الريح ، والطاوس يلقى ريشه فى زمن الخريف اذا بدا أول ورق الشجر يسقط ، واذا بدأ الشجر يكتسى ورقا بدأ الطاوس فاكتسى ريشا »(٣٩) .

٩ ــ حضن الطير

قال : وقالوا : فراخ البزاة سمينة طيبة جدا ، وأما الاوزة فانها التى تحضن دون الذكر ، وأما الغربان فعلى الاناث الحضن والذكورة تأتى الاناث بالطعمة .

---

(٣٨) الحيوان جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٣٩) المرجع السابق ص ١٨٣ .

وأما الحجل فان الزوط منها يهيئان للبيض عشين وثيقين مقسومين عليهما فيحضن أحدهما الذكر والآخر الأنثى وكذلك هما في التربيـــة ، وكل واحد منهما يعيش خمسا وعشرين سنة ، ولا تلقح الأنثى بالبيض ولا يلقح الذكر الا بعد ثلاث سنين »(٤٠) .

١٠ ــ أجناس العقبان

وقال قوم ان العقبان والبزاة التامة ، والجهارزانك والســمنان والزمامج والزرارقة انهــا كلها عقبــان ، وأما لشــواهين والصــقورة والبواييء فانها أجناس أخر »(٤١)» .

---

(٤٠) المرجع السابق ص ١٨٢ .
(٤١) المرجع السابق ص ١٨١ .